العدوان الثلاثى
نقطة فارقة بين عهدين

د. رفعت يونان

ليس من قبيل المبالغة أن فشل العدوان الثلاثى على مصر الذى أعقب قرار تأميم قناة السويس من جانب الرئيس عبد الناصر فى ٢٦ يوليو ١٩٥٦ وتداعياته، كان بمثابة إعلان وفاة لنظام دولى كان قائما حتى ذلك التاريخ وإعلان ميلاد نظام دولى آخر . فقد كانت تجربة مصر فى مواجهة العدوان تمثل ملحمة من ملاحم بطولة الشعب المصرى فى التصدى للغزاه والمحتلين منذ بداية القرن التاسع عشر إبتداء من حركة المقاومة الشعبية ضد الغزو الفرنسى عام ١٧٩٨ الى المقاومة الشعبية لحملة فريزر عام ١٨٠٧ الى الثورة العرابية ومواجهة التدخل البريطانى عام ١٨٨٢ إلى ثورة ١٩١٩ ضد الاحتلال البريطانى، إلى كفاح شعب مصر فى منطقة قناة السويس (١٩٥١-١٩٥٤) إلى توقيع إتفاقية الجلاء البريطانى عن السودان عام ١٩٥٣ وعن مصر عام ١٩٥٤.

وقد كان للمقاومة الشعبية فى مواجهة العدوان الثلاثى أثرها البالغ فى إحباط مخطط العدوان حيث وقفت بورسعيد أرضا وشعباً حائلاً دون تحقيق أحلام المعتدين. وقد كان توقف هذا الهجوم الغادر عند مدينة الكاب جنوب مدينة بور سعيد نتيجة لعدة عوامل تفاعلت جميعها بنسب مختلفة وإنتهت بدحر المعتدين – وقد كان فى مقدمة هذه العوامل رفض القيادة المصرية للإستلام وتوزيع السلاح على الشعب وإطلاق المقاومة الشعبية والبدء فى إتخاذ ترتيبات المقاومة السرية وصدور الإنذار السوفيتى العنيف مع بروز الموقف الأمريكى المعارض للخطة البريطانية الفرنسية لأسباب استراتيجية

امريكية، بالإضافة الى التضامن العربى الإيجابى لموقف مصر وصدور قرارات الأمم المتحدة بوقف القتال. فمن حق مدينة بورسعيد وشعبها الفخر بكفاحهم وبطولاتهم والاحتفال بيوم ٢٣ ديسمبر كعيد قومى للمحافظة ، كما أن لكل شعب مصر الحق فى مشاركة بورسعيد هذا الاحتفال على إعتبار أن هذا التاريخ عيد قومى يفخر به كل إنسان مصرى.

والواقع أن العدوان الثلاثى (أزمة السويس) لم تكن وليدة لخطتها لأن الصّراع بين مصر والقوى الأجنبية يمتد الى ماضى بعيد. فقد تراكمت رواسب المرارة والظلم داخل مصر، ولكنها بقيام ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ بدأت تشعر بأنها على أعتاب مرحلة جديدة شيمتها العزة والكرامة وتحررت مما عانته فى الماضى ، فإستطاعت التخلص من الإحتلال البريطانى بتوقيع اتفاقية الجلاء فى ١٩ أكتوبر ١٩٥٤ – وأن ما جرى من أحداث عقب هذا التاريخ وحتى إعلان قرار تأميم قناة السويس فى يوليو ١٩٥٦ ثم جاءت الفترة منذ قرار التأميم إلى البدء فى تنفيذ خطة العدوان فى ٢٩ أكتوبر ١٩٥٦ لتمثل توهج الأحداث وتلتها النتائج التى اتسمت بالطابع الدولى ثم انتهت بإستقرار الأوضاع واسدال الستار على هذا الحدث الهام.

وقد كانت نتائج العدوان هى المفاجأة الكاملة والمذهلة لدعاة الحروب والمروجين لها بعد أن رفضت مصر الإنذار البريطانى الفرنسى الذى يقضي بإنسحاب مصر من منطقة القناة بحجة منع الصدام المصرى الإسرائيلى المحتمل. وبدأت قوات التآمر الثلاثى بالهجوم على مصر ولولا تمسك الشعب المصرى وشجاعته والتحامه بالجيش فى صد العدوان بالإضافة إلى معارضة أمريكا للخطة البريطانية–الفرنسية لإسباب استراتيجية أمريكية كذلك صدور الإنذار السوفييتي الذى هدد بضرب كل من لندن وباريس وتل أبيب فى حاله عدم ايقاف اطلاق النار. وهنا يقول السفير الأمريكى فى موسكو (بوفلن) إن

السوفيت كانوا يعتزمون تسوية عاصمة إسرائيل بالأرض وأن لهجة الخطاب الموجه الى بن جورجون قد أثار حفيظته وسبب له ذعراً كبيراً لأنه يختلف عن الخطابات المرسلة الى كل من لندن وباريس.

ولقد فشل العدوان عسكريا وسياسياً وإقتصادياً، وشكلت أحداثه ملامح بطولية بكل مقاييس الزمان والمكان ثم ما ارتكبه جيش الاحتلال الصهيونى من مذابح ضد الأسرى المصريين العزل من السلاح والمدنيين الذين تصادف وجودهم فى مناطق المعارك على ارض سيناء إبان العدوان علماً بأن هذه الجرائم لا تسقط بالتقادم.

وإذا نظرنا الى اطراف التواطؤ الثلاثى نجد الآتى :

*** بالنسبة لإسرائيل : حققت مكاسب سياسية وعسكرية من أهمها :**

١- ربطت مصالحها الذاتية بالولايات المتحدة وقد كان ذلك بمثابة بدء اسرائيل ممارسة دروها كشرطى محلى بدعم من الولايات المتحدة .

٢- وثقت إرتباطات الجاليات اليهودية بإسرائيل التى اكتسبت قواتها المسلحة مكانة عسكرية نتيجة هزيمة مصر العسكرية وتدمير جزء كبير من سلاحها الشرقى، مع تدفق التبرعات والهبات المادية عليها .

٣- أصبح لسفن اسرائيل الحربية والتجارية الحق فى حرية الملاحة فى خليج العقبة، كما اكتسب ميناء إيلات ميزة الإرتباط بالطرق البحرية والتجارية العالمية. ومن ناحية أخرى ترتب على هذه الحرب طرد اليهود الذين يحملون الرعوية الأجنبية وتأميم منشآتهم.

بالنسبة لبريطانيا :-

١- فقدت إحترام الرأى العالمى وأوقفت عدوانها على مصر مع سحب قواتها من مسرح العمليات الحربية نتيجة لقرار الأمم المتحدة.

٢- خسرت قاعدتها العسكرية الضخمة فى منطقة السويس بما تحتويه من أسحله وعتاد وذخيرة حربية نتيجة قيام عبد الناصر بإلغاء إتفاقية الجلاء السابق توقيعها مع بريطانيا فى ١٩ أكتوبر ١٩٥٤ كما تم صرف النظر عن إسناد أى دور لها فى إدارة القناة .

٣- تدهور قيمة الجنيه الإسترلينى الى درجه جعلتها تمد يدها للولايات المتحدة للوقوف بجانبها فى أزمتها المالية وإنقاذ إقتصادها من الإفلاس.

٤- تدهور مركزها السياسى والأدبى حيث أثار إشتراكها فى الحرب جدلاً شديداً بين الأحزاب السياسية وطوائف الشعب البريطانى وإنتهى بسقوط انتونى ايدن فى يناير ١٩٥٧ .

بالنسبة لفرنسا :

١- سقطت الأمبراطورية الفرنسية الرابعة نتيجة للأحداث الدامية التى وقعت فى الجزائر وقيام مجموعة من الجنرالات الفرنسيين بإعلان العصيان ضد الحكومة الشرعية مما ترتب عليه عودة الجنرال ديجول لتولى السلطة فى الجمهورية الخامسة التى قامت بمنح المستعمرات الفرنسية إستقلالها.

٢- فقدت نفوذها وممتلكاتها فى مصر والعالم العربى حيث أجبرت على الجلاء عن الجزائر وتونس ومراكش كذلك عن غرب إفريقيا الفرنسية وافريقيا الأستوائية.

٣- أخذت تبحث عن طريقة جديدة للإحتفاظ بقرارها السياسى المستقل حيث إن إشتراكها فى العدوان قد نال من حريتها فى إدارة الأزمات وفق المصالح الوطنية الفرنسية مما أدى الى ظهور قوة الضرب الفرنسية المستقلة والتى دخلت منها فرنسا العالم النووى.

٤- كما خسرت إقتصادياً لما تكبدته من مصروفات مالية بالإشتراك فى هذه الحرب بالإضافة إلى قيام مصر بتأميم الشركات والبنوك الفرنسية فى مصر.

أما بالنسبة لمصر :

وهى الطرف الذى وقع عليه بالعدوان فنجد الآتى :

١- حققت مصر نصراً سياسياً ضخماً نتيجة قيام زعامتها السياسية (الزعيم عبد الناصر) بإدارة هذه الأزمة ببراعة تامة بحكمة وحنكة بحيث غطى هذا النصر على الهزيمة العسكرية التى ترتبت على نجاح الضربة الأنجلو فرنسية .

٢- إلغاء المعاهدة البريطانية المصرية (معاهدة الجلاء) وتحطيم آخر قيد يربط مصر بالإستعمار الغربى وكان يفقدها جزءاً من ترابها الوطنى يقيم عليه الإستعمار قواعده العسكرية.

٣- فرضت مصر كل سيطرتها على قناة السويس مع حفظ كامل حقوقها المشروعة بعودة هذا الشريان البحرى الهام إلى اصحابة الشرعيين.

٤- تحرير الإدارة المصرية وإعلاء مكانة مصر إقليماً ودوليا حيث أصبح لها مركز الصدارة لريادة الوطن العربى وكذلك دول العالم الثالث المتطلعة الى الحرية والإستقلال .

كما أن هذا العدوان قد أدى الى أفول نجم إمبراطوريتين استعمارتين كبيرتين هما انجلترا وفرنسا فقد انتهى عصرهما الامبراطورى وتحولتا الى دولتين تجاريتين بينما ظهر فى الأفق نجم قوة جديدة وهى الولايات المتحدة الأمريكية الذى برز دورها خلال الحرب العالمية الثانية، ثم أتاحت لها أزمة السويس مكاناً مرموقاً فى منطقة الشرق الأوسط.

كما كان للعدوان الثلاثى الفضل فى ظهور الاتحاد السوفيتى وخروجة من عزلته الستالينية ليمارس دوراً نشطاً فى الشرق الأوسط ومياهه الدافئه، فلم تعد المواجهة بينه وبين الولايات المتحدة الأمريكية تدور من وراء الستار الحديدى ومتاريس الكتلة الشرقية وإنما صارتا صراعاً محتوماً وشديد السخونة شملت العالم الثالث مع تركيز خاص على الشرق الأوسط والوطن العربى الذى أصبح المنطقة الحرجة فى المواجهة الاقتصادية والسياسية بين الكتلتين الغربية والشرقية.

وقد كان للنصر السياسى الذى حققته مصر الباعث للأجيال التالية فى العالم العربى إلى حمل مسئولية الإنتقال من زمن الإستعمار والسيطرة الأجنبية إلى عصر الإستقلال والتحرر الوطنى فتبدأ معه صفحة جديدة من النظام الدولى والعلاقات الدولية. وهنا لابد أن نشيد بدور الإعلام أثناء هذه الحرب حيث كان المسئول إعلامياً فى ذلك الوقت هو الدكتور عبد القادر حاتم الذي قام بإرسال مئات البيانات والصور عن آثار العدوان على المساجد والكنائس وعلى المدنيين فى بورسعيد كما تم الإتصال بأحزاب المعارضة فى انجلترا وفرنسا حيث وقف الوزير العمالى للمعارضة (انورين بيفان) فى

بريطانيا يهاجم العدوان على مصر حيث قال عبارته المشهورة "إننا أقوى دولة ولكن هناك يا مستر إيدن من هو أقوى منا". وسقط إيدن رئيس الوزراء رغم انه كان يردد قبل العدوان "إن العالم لا يتسع لى ولعبد الناصر .. ولابد لأحدنا أن يرحل".

أما فى فرنسا فكانت المعارضة تهاجم بشدة فى الجمعية الوطنية جى موليه رئيس الوزراء فإضطر أن يكذب ويقول لماذا هذا الهجوم وقد إنتصرنا والعلم الفرنسى مرفوع الأن فوق مدينة الإسماعيلية. ولكن بعد التأكد من كذبه هاجمه أعضاء الجمعية الوطنية بهتافهم "يسقط جى موليه الكذاب".

أما بن جوريون رئيس وزراء إسرائيل عندما ماطل فى تنفيذ قرار مجلس الأمن بالإنسحاب من سيناء قرر إيزنهاور قطع المعونات الأمريكية عنه، وعلى الفور أعلنت جولدا مائيير مندوب إسرائيل فى الأمم المتحدة امتثال إسرائيل للقرار بالإنسحاب الشامل والكامل من غزه.

وقد كان لقرار الرئيس الأمريكى (ايزنهاور) أثره الكبير فى العالم بل وفى الولايات المتحدة نفسها فعندما تقدم للإنتخابات لفترة ثانية فى ٦ نوفمبر ١٩٥٦ فاز فوزاً كبيراً واكتسح منافسيه وذلك لموقفه العادل والحاسم من العدوان على مصر ولم يكترث بتهديدات يهود أمريكا على موقفه الإنتخابى .. فهل يتعلم الحاضر من الغائب ؟

وهنا نتساءل : هل كان عبد الناصر يعلم بالهجوم أو العدوان الثلاثى قبل وقوعه؟

يقول الدكتور ثروت عكاشة الذي كان ملحقا عسكريا فى فرنسا أثناء العدوان فى كتابه (مذاكراتى فى السياسة والثقافة) إنه فى الفترة السابقة للعدوان ومنذ شهر يناير ١٩٥٦ كانت تصله معلومات من أصدقائه الملحقين العسكريين من ضباط الأحلاف الغربيه ينتمون الى جنسيات مختلفة كان

يعطفون على قضيتنا المصرية، وأكد بعضهم فى ٢ أكتوبر ١٩٥٦ أن ثمه إجتماعات مريبه تتم بين مسئولين فرنسيين وإسرائيليين منذ أوائل سبتمبر يشتم منها تدابير موجهه ضد مصر. وكان أهم هذه المعلومات وأخطرها ما وصل اليه من صديق فرنسى يحتل منصباً حساساً فى فرنسا طلب أن يلتقي به بصفة عاجلة صباح السبت ١٩٥٦/١٠/٢٧ وأبلغه بالمعلومات بأنه "تم اتفاق جديد بين بريطانيا وفرنسا واسرائيل على قيام قواتهم المسلحة بعدوان منسق على مصر فتهاجم إسرائيل سيناء لتهئ الذريعة وتحكم الشرك، وبعد فترة وجيزة تكفى لإستدراج الجيش المصرى الى سيناء ومحاصرته فيها تقوم بريطانيا وفرنسا بتوجيه إنذار الى مصر تعقبانه بتمهيد جوى مركز يقوم به السلاح الجوى البريطانى والفرنسى بتدمير المطارات الحربية والتحصينات العسكرية والدفاعات الساحلية، ويتلوه إنزال قوات الإقتحام ببورسعيد للإستيلاء على الهدف الرئيسى وهو قناة السويس، وأن الخطة قد تم التصديق عليها نهائيا كى تنفذ خلال الأيام القليلة التالية بموعد أقصاه ٤ نوفمبر حتى تنتهى العملية قبل الانتخابات الأمريكية فى ٦ نوفمبر وان كل الإستعدادت قد اكتملت للتنفيذ".

وفى اليوم نفسه قام ثروت عكاشة بتكليف الملحق الصحفى بالسفارة عبد الرحمن صادق بحفظ هذه المعلومات عن ظهر قلب، وطلب منه تكرارها شفوياً أمامه عدة مرات قبل سفره الى القاهرة وإبلاغ الرئيس عبد الناصر شخصيا بها. ثم توجه الى مطار بروكسل فى بلجيكا أولا – رغبه فى التمويه – ثم الى مطار القاهرة والتقى بالرئيس عبد الناصر وجهاً لوجه فى الساعة الواحدة والنصف بعد الظهر يوم السبت ٢٩ أكتوبر ١٩٥٦، أى قبل قيام إسرائيل بعدونها على ممر متلا الساعة الخامسة مساء نفس اليوم. وقد علق عبد الناصر على هذه المعلومات قائلا لحامل الرسالة – عبد الرحمن صادق

– "مش معقول ينزلوا .. بريطانيا وفرنسا للدرجة دي ويتحالفوا مع إسرائيل للعدوان على مصر".

وبعد عودة ثروت عكاشة الى مصر فور إنتهاء العدوان بادره الرئيس عبد الناصر ضاحكا "لقد نفذنا من ثقب إبرة بإذن الله". ثم أضاف "أنه لم يصدق فى مبدأ الأمر حدوث هذا التواطؤ الثلاثى برغم ما أبلغه به، إذ كان حدوث هذا من المستحيل فى تقديرى". وبعد ذلك بفترة وجيزة التقى مع حسنين هيكل على باب مصعد جريدة أخبار اليوم بالصدفة فرحب به هيكل فى حماس وشد على يده مشيراً بما بلغه على لسان الرئيس عبد الناصر من أخبار خطة العدوان الثلاثى السابق إرسالها للرئيس.

ومرت الأعوام وعند صدور كتاب (ملفات السويس) لم يذكر مؤلفه . محمد حسنين هيكل واقعة قيام ثروت عكاشة بإرسال خطة العدوان إلى عبد الناصر بل ذكر أن التحرك العسكرى الإسرائيلى جاء مفاجئاً لعبد الناصر ولم ير سبباً واضحاً يبرره من هذا التوقيت بالذات .. وأن عبد الناصر لم يكن يتوقع التواطؤ إلا عندما إنتهت فترة الإنذار البريطانى الفرنسى فى الساعة السادسة بعد الظهر بتوقيت القاهرة وبدأت أول غارة للطائرات البريطانية على مطار الماظه الملاصق لبيته.

وهنا يرد ثروت عكاشة على معلومات هيكل قائلا "إن الحقيقة هى أن الرئيس جمال عبد الناصر لم يفاجأ بالعدوان والتواطؤ – حيث أنه منذ بداية عام ١٩٥٦ وهو يرسل الرسائل الخاصة للرئيس وكذلك الى المخابرات المصرية وكان أخر ما أرسله إلى عبد الناصر هو خطة العدوان الثلاثى التى أبلغها له صديقه الفرنسى فى ٢٧ أكتوبر ١٩٥٦ وانها تتطابق تماماً مع إتفاقيه سيفر السرية. وكان عكاشة يأمل أن يستأنس هيكل بتقارير الملحقين العسكريين المصريين فى شتى أنحاء أوربا المحفوظة بملفات المخابرات

المصرية الى جانب التقارير والملفات الأجنبية التى استعان بها قبل أن ينتهى إلى ما إنتهى اليه.

أما بالنسبة للصديق الفرنسى الذى أخبر عكاشة بتفاصيل خطة العدوان فقد رفض قبول أى هدية قائلا "لو أنى تلقيت شيئاً منك لكان يعنى هذا أننى لم أكن أومن بمبدأ الخدمه وأنى أخون وطنى من أجل مطمح شخصى".

وقد يتبادر الى الذهن هذا السؤال .. هل كان عبد الناصر يتوقع تواطؤ الدول الثلاث للعدوان على مصر ؟ فى الحقيقة .. لم يكن الرئيس عبد الناصر يتصور قيام إنجلتراً وفرنسا بالمخاطرة بسمعتها فى العالم العربى واستخدام اسرائيل كذريعه بهدف الإستيلاء على القناة، بالرغم من المعلومات الهامة التى قدمها له خالد محى الدين والتى أرسلها له بعض الأصدقاء من باريس حيث يؤكد أن الفرنسيين يخططون لمهاجمة مصر بالتحالف مع إسرائيل. فقد تخيل عبد الناصر أن هذه المعلومات هى عبارة عن خدعة يراد منها ايقاع مصر فى فخ يؤدى الى قيامها بعمل عسكرى ضد إسرائيل. وبرغم إنشغال الولايات المتحدة بعملية الانتخابات الرئاسية إلا أن الاستطلاعات الأمريكية رصدت عملية التعبئة فى إسرائيل وتجمعت لدى المخابرات الأمريكية معلومات تؤكد قيام الدول الثلاث بإجراء التعبئة العسكرية. فقام آيزنهاور بتحذير بن جوريون فى رسالة عاجلة تتضمن عدم إستغلال هذه الظروف والهجوم على الاردن أو مصر لأن الولايات المتحدة لن تقف مكتوفة الأيدى لإنشغالها فى عملية الإنتخابات الأمريكية.

وفى مقابلة بين السفير الأمريكى فى لندن ووزير الخارجية البريطانى سلوين لويد أراد السفير الاستفسار عن عمليات التعبئة التى تجرى فى إسرائيل وهل هناك نية للهجوم على مصر فرد سلوين لويد بأن حكومة صاحبة الجلالة لا تملك أيه معلومات عن هذا الأمر، إلا أن المخابرات

الأمريكية أمكنها جمع كل المعلومات والأدلة مساء ٢٨ أكتوبر والتى تؤكد بأن هدف هذه التحركات الإسرائيلية هو مصر. كما تسلم همرشلد السكرتير العام للأمم المتحدة برقية من مصادره الخاصة تؤكد أن اسرائيل بمساندة فرنسا على وشك الهجوم على مصر. ولقد بلغ التموية من جانب بريطانيا الى الدرجة التى جعلت الولايات المتحدة تعتقد أن جهوداً بريطانية تبذل لتهدئة الفرنسيين والإسرائيلين وهو ما جعلها تستبعد تواطؤ بريطانيا فى أى عدوان على المنطقة، كما قامت بالإشتراك مع فرنسا فى إصدار بيان مشترك يؤكد إستعدادها لبحث أيه مقترحات مصرية جديدة تهدف الى حل أزمة السويس مع التزامها بقرارات مجلس الأمن وتمسكها بمقترحات الدول الـ ١٨ كأساس للتسوية. ورغم قيام آيزنهاور بإرسال برقيات عاجلة الى بن جوريون يدعوه الى العدول عن الحرب كانت الإستعدادات الإسرائيلية تسير على قدم وساق للمضى نحو العدوان.

وفى صباح ٣٠ أكتوبر تأكدت الخارجية الأمريكية من حقيقة التواطؤ الذى ظل خافياً حتى عن الرئيس آيزنهاور. وعندما اتضحت الأمور اتصل الرئيس الأمريكي برئيس وزراء فرنسا وبريطانيا وطالبهما باللجوء الى الولايات المتحدة لتسوية الأزمة بالطرق السلمية كما استدعى سفيرى فرنسا وبريطانيا فى واشنطن وعبر لهما "عن ضيقه البالغ بشأن التواطؤ الخفى الذى تم بينهما بدون علم الولايات المتحدة".